علم اللغة الجغرافي بين حداثة المصطلح وأصوله لدى العرب

عبد العزيز بن حميد الحميد*

ملخص البحث:

يتناول هذا البحث علماً جديداً في اصطلاحه وتكوينه، وهو (علم اللغة الجغرافي)، وهو تسمية حديثة لعلم يشترك في بحوثه علمان هما: علم اللغة، وعلم الجغرافيا، يأتي علم اللغة وعلم الجغرافيا علمين منفصلين في ميدانين متباعدين، فعلم اللغة يتعلق بلغة الإنسان وما يتصل به من فروع وقضايا، وعلم الجغرافيا يتعلق بالبلدان والمناطق وما يتصل بها من مسائل بعيدة عن اللغة، ولا يشكّ المطلع على التراث العربيّ أنه كان "عند العرب بذور علم اللغة الجغرافي الذي يدرس العلاقة بين الظاهرة اللغوية ومجال انتشارها، وإن لم تكن على نحو علمي صارم، وتبدو في أخذهم رواية اللغة عن الأعراب في البوادي ووضع الحدود بين اللهجات وقبائلها. سأحاول في الصفحات الآتية أن أكشف عن حداثة علم اللغة الجغرافيّ لدى الغربيّين وهو من علم اللغة التطبيقي، مع الكشف عن أعمال العرب التي تدخل تحته، سواء أكانوا لغويّين أم جغرافيّين. ومحاولتي هذه هي لإبراز تكامل الجهود وإن كانت بلغاتٍ مختلفة وحضارات متعدّدة. وفي موضوعنا هذا يتجلّى النضج الحديث على أيدي الغربيّين لهذا العلم (علم اللغة الجغرافي).

الكلمات المفتاحية: علم اللغة- الأطلس اللغوي- المعاصرون- جهود القدامى- المقدسي

---

* كلية اللغة العربية بالرياض، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، السعودية.

Abstract:
This research studies new knowledge both in its term and composure. It is (Geographical Linguistic study). It is a new name for a study which contains two different knowledge in its works; Linguistics and Geography . These disciplines come from two different fields of knowledge. Linguistics deals with Human languages and entire what relate to it from branches and issues, while Geography studies what relate to towns, regions and all matters that have links with it, which are so far from Language. Whoever has access to Arab Heritage will not maintain no doubt that source of Geo- Linguistics existed in Arab Legacy, which takes care of relationship between Linguistics phenomenon and its expansion; it may not be capable of been based on organized scientific way as it is in Western study. The vast example for Geo- Linguistics in Arab Heritage can be traced to reporting of language from Arab Bedouins and erecting boundaries among the dialects and tribes in the work of early Arabia Grammarians. This paper will explore in the next pages, recent Geo- Linguistics study in the West, which was laid down under Applied Linguistics and bring out some Arab works that have links with this knowledge either from Linguistics or Geographers. My effort is to exhibit integrated endeavors from different languages and multi civilizations. In this topic, current discovery from Westerners will be exhibit for this knowledge Geo- Linguistics.

Key words: Linguistics- Linguistic Atlas- Contemporary- Ancient efforts- Sanctified.

Abstrak:
Kajian ini mengupas satu istilah yang menggabungkan di antara dua disiplin kajian: linguistic dan geografi; kedua-duanya adalah cabangan disiplin ilmu yang berbeza di dalam dua bidang yang berbeza. Linguistik adalah kajian bahasa manusia dan isu-isu yang berkaitan dengannya manakala geografi pula adalah kajian berkenaan tempat-tempat dan isu-sisu yang berkaitan dengannya. Tidak dinafikan bagi mereka yang melakukan kajian yang berkenaan bahawa bangsa Arab telah mempunyai benih-benih cabang disiplin kajian ini yang melihat hubungkait di antara fenomena bahasa dan juga kawasan ia tersebar. Ia mungkin tidak sejelas kaedah ilmiah moden, namun usaha mereka merekodkan ungkapan bahasa daripada penutur Badwi dan melukis sempadan dialek kabilah-kabilah di sesuatu tempat merupakan landasan cabang disiplin ini. Artikel ini akan menghuraikan perkembangan cabang disiplin ilmu ini di kalangan sarjana Barat dan bagaimanakah usaha-usaha pengkaji bahasa Arab lampau dan para sarjana geografinya turut boleh dianggap sebagai usaha awal cabang kajian moden tentang bahasa ini. Ussaha ini ialah untuk menunjukkan susur galur perkembangan sesuatu cabang ilmu itu yang datang dari latar sejarah , tamadun serta bahasa yang berbeza-beza dan bagaimana ia telah mencapai tahap kematangannya yang turut di sumbangkan oleh sarjana-sarjana moden Barat.

Kata kunci: Linguistik- Atlas Bahasa – Sarjana Kontemporer – Usaha Sarjana lampau – Al –Maqdisiy

مقدمة:

عند الحديث عن علم اللغة الجغرافي وتطبيقاته على اللغة العربية يجب ألاّ ننسى الجهود الغربيّة في نضوج هذا العلم واستقلاله وتأصيله، مع النظر إلى ما يدخل تحت هذا العلم من جهود علماء العرب من جغرافيّين ولغويّين بالتقدير والإشادة.

يتناول هذا البحث علماً جديداً في اصطلاحه وتكوينه، وهو (علم اللغة الجغرافي)، وهو تسمية حديثة لعلم يشترك في بحوثه علمان هما: علم اللغة، وعلم الجغرافيا، وقد يسمّيه بعضهم بـــ (اللغويّات الجغرافيّة) وآخرون بـــ (اللسانيّات الجغرافيّة)، ولا عجبَ في كون العرب لغويين وجغرافيين لم يعرفوا هذا العلم باسمه هذا؛ ذلك أن المعارف الإنسانية تراكميّة، والعرب مع سبقهم أغلب الأمم القديمة في دراساتهم اللغويّة وجهودهم الجغرافية التي شهد كبار علماء الشرق والغرب بتميّزها وتأثيرها في المعارف الإنسانية، لكنّ تأسيس هذا العلم يُحسب للغربيّين؛ فالعرب وضعوا أصول بعض العلوم اللغويّة – ومنها علم اللغة الجغرافي– وبذلوا فيها جهوداً كبيرة، لكنّها نضجت عند غير العرب بعد نهضتهم في العصر الحاضر، فوضعوا أصولها ونظريّاتها وتشكّلت علوماً مستقلة.

يأتي علم اللغة وعلم الجغرافيا علمين منفصلين في ميدانين متباعدين، فعلم اللغة يتعلق بلغة الإنسان وما يتصل به من فروع وقضايا، وعلم الجغرافيا يتعلق بالبلدان والمناطق وما يتصل بها من مسائل بعيدة عن اللغة، لكنّ هذين العلمين يتقاربان جداً في ظروف معيّنة ليكونا علماً واحداً تبدو الصلة وثيقةً بين هذين الجانبين فيه.

إنّ نقاط الالتقاء بين اللغة والجغرافيا تبدو عند التمعّن فيها مناطق واسعة يغفل عنها الباحثون؛ بسبب غفلة اللغويّ عن قضايا اللغة المتصلة بالجغرافيا، وغفلة الجغرافيّ عن قضايا الجغرافيا المتصلة باللغة. ولذا يحجم أكثر الباحثين عن الدراسات المتصلة بهذا الميدان؛ لما تحتاجه من اتساع نظرة من يخوض فيه، وأكثر اللغويّين يؤثر البحث فيما هو واضح من قضايا اللغة وموضوعاتها، ولا يلتفت إلى ما يحتاج لعلمٍ آخر.

تبدو نقاط التماسّ بين العلوم ميداناً خصباً لإقامة العديد من الدراسات الحيّة، وهي في أغلبها قضايا وموضوعات تربط بين القديم والحديث، ويخرج منها علوم حديثة في اصطلاحها وإن كان لبعضها أصول قديمة في كتب العلماء.

ولو أنا نظرنا إلى أسماء العلوم الآتية لوجدنا لكل علم ميداناً مستقلاً:

علم اللغة، علم الجغرافيا، علم التاريخ، علم النفس، علم الاجتماع، علم الحاسوب.

ولأنّ اللغة عنصرٌ فاعلٌ في حياة الإنسان، ومرتَكَزٌ تدور حوله العديد من تلك العلوم؛ فإنّها تتداخل معها ليخرج منها علوم جديدة تجمع بين اللغة وأحد تلك العلوم. ولذا تُعرف الآن علومٌ حديثةٌ تحمل الأسماء المذكورة آنفا.

ولست أعني من إشاراتي السابقة أنّ الصلة بين اللغة وتلك العلوم صلاتٌ مفتعلةٌ أو محدثةٌ، بل أعني إيضاح تلك الصلات، وبيان مجيئها من علومٍ تبدو في ظاهرها متباعدة. كما أنّ هذه العلوم الحديثة في اصطلاحاتها ونضجها لها أصولٌ وردت في إشاراتٍ ووقفاتٍ قديمةٍ للعلماء، مما يدلّ على أنهم عرفوا موضوعات تلك العلوم وإن لم تستقلّ لديهم، فأكثر مسائل تلك العلوم وردت متناثرة لدى القدماء على أنّها جزء من دراساتهم حول اللغة.

لقد أدرك الجغرافيون العرب أهمية الموقع الجغرافي وأثره في اللغة، وكذلك أدرك اللغويّون ذلك عند جمعهم اللغة؛ فاعتنوا بتحديد الموقع الجغرافي للقبائل التي رووا عنها، والتي رأوا عدم الرواية عنها لتأثر لغتها بمؤثرات خارجيّة، كما أنّ ملاحظات الجغرافيين والرحّالة وأحكامهم اللغويّة على ما يسمعونه من لغات البلدان علامة جليّة على أهميّة الموقع الجغرافي وصلته باللغة.

ولا يشكّ المطلع على التراث العربيّ أنه كان "عند العرب بذور علم اللغة الجغرافي الذي يدرس العلاقة بين الظاهرة اللغوية ومجال انتشارها، وإن لم تكن على نحو علمي صارم، وتبدو في أخذهم رواية اللغة عن الأعراب في البوادي ووضع الحدود بين اللهجات وقبائلها".[١]

علم اللغة الجغرافي مفهومه، وحدوده، وبداياته:

تعدّدت تسميات هذا العلم مع الاختلاف بين الباحثين في المساواة بين تلك التسميات أو التفرقة بينها، وفيما يأتي بيان لأهمّ هذه التسميات:

- علم اللغة الجغرافي أو علم اللغة الإقليمي Area Linguistics: "فرع من فروع علم اللغة يبحث في تصنيف اللهجات واللغات على أساس جغرافي، كما يبحث في توزيع لهجات لغةٍ ما، وفي الفروق بين هذه اللهجات.
- ويسمى هذا العلم أيضاً جغرافيا اللهجات أو الجغرافية اللغوية Linguistic geography
- ويطلق مصطلح علم اللغة الإقليمي أو الجغرافي أيضاً على دراسة اللغات أو اللهجات التي يتكلمها السكان في منطقة معينة. ومثال ذلك دراسة لغتين متجاورتين لمعرفة كيف تؤثر كلٌ منهما في الأخرى فيما يتعلق بالنحو، والمفردات، والنطق، إلخ.
- ويطلق على علم اللغة الجغرافي مصطلح: Geographical Linguistics، وهو أحد فروع علم اللغة الذي يدرس التوزيع الإقليمي للهجات.
- ويُطلق أيضاً على علم اللغة الجغرافي: Geolinguistics ويعرفونه بأنه دراسة اللغات من حيث توزيعها الجغرافي والسكني، ومن حيث تأثير كل لغة في اللغات الأخرى.
- ويهتم علم اللغة الجغرافي بدراسة اللغات في الحالة التي هي عليها الآن، مع الإشارة بصفة خاصة إلى عدد المتحدثين بكل لغة، والتوزيع الجغرافي، والأهمية الاقتصادية والعلمية والثقافية؛ وأيضاً التعرف عليها في أشكالها المنطوقة والمكتوبة.[٢]
- وعُرّف بأنّه دراسة إقليم جغرافي معيّن دراسة جغرافية تاريخية واجتماعية في وحدة لغوية معيّنة.[٣]

ويتضح من المصطلحات المتعدّدة السابقة أنّه في أغلبه تعدّدٌ في المصطلح لعلمٍ واحدٍ، وهو ما يعطي هذا العلم اتساعاً يصعب حصر قضاياه التي تدخل تحته، ولذا لا نعجب من اختلاف الكتب التي تتحدث عن هذا العلم فيما يدخل تحته من دراسات، وهو ما يعطينا اتساعاً في تطبيقه على المسائل التي تتصل فيها اللغة بالجغرافيا.

وقد جعل اللغويّ ماريوباي من وظيفة علم اللغة الجغرافي أن يصف –بطريقة علمية وموضوعية– توزيع اللغات في مناطق العالم المختلفة ليوضح أهميّتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والإستراتيجية والثقافية، وأن يدرس طرق تفاعل اللغات بعضها مع بعض، وكيفية تأثير العامل اللغوي في تطور الثقافة والفكر الوطنيين.[٤] ولا شكّ أن ما ذكره ماريوباي من بعض وظائف هذا العلم، فهو علم واسع متجدّد يتناول مسائل كثيرة تلتقي فيها اللغة بالجغرافيا.

أهمّ قضايا علم اللغة الجغرافي وتطبيقاته في العصر الحديث:

بما أنّ هذا العلم من العلوم الحديثة التي استوتْ ونضجتْ في هذا العصر، مع وجود أصولٍ له في القديم، يحسن التعريف بأهمّ مسائله والجهود التي بُذلت فيها:

القضية الأولى: الأطالس الجغرافيّة للهجات والظواهر اللغويّة

الأطلس اللغوي طريقة حديثة لتسجيل الظواهر اللغوية على خرائط جغرافية، وذلك عند الحاجة إلى تحديد مناطق تلك الظواهر، فتأتي الخريطة وسيلة إيضاحٍ لظاهرة لغويّة لها علاقة بمكان معيّن، وهي من أقوى مظاهر اتصال علمي اللغة والجغرافيا.

ولم يعرف العرب الأطالس اللغوية، فهي وسيلة حديثة لتصوير ما ذكره القدماء والمحدثون عن اختلاف اللهجات في البلاد المختلفة، فيأتي الأطلس ليظهر تلك الاختلافات اللغوية على خرائط جغرافية.

وفكرة الأطلس اللغوي بدأت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي، وكان رائدا هذا النوع من الدراسة فنكر (Wenker) الألماني، وجلييرون (Gilliéron) الفرنسي، فقد قام كل منهما بعمل أطلس لبلاده، ظهر أحدهما وهو الأطلس الفرنسي بعد أن أتمه جلييرون مع مساعده (Edmond Edmont) وبدأ نشره من سنة ١٩٠٢م إلى سنة ١٩١٠م، وفي سنة ١٨٧٦م بدأ فنكر (Wenker) العمل في الأطلس الألماني سنة ١٨٧٦م إلا أن عمله هذا لم يتحقق على يده، بل تحقق على يد تلميذه فرده Wrede حيث عمل

على نشر أطلس لسان ألمانيا، وحسن منهاجه، وظهر تحت اسم (Deutscher sprachetlas) سنة ١٩٢٦م.

وقد أخذت فكرة عمل الأطالس تتسع منذ ظهور الأطلس الفرنسي سنة ١٩٠٦م.

وفي سويسرا قام الأستاذان: يابرج (Jaberg) ويود (Jud) بعمل أطلس لغوي لإيطاليا وجنوب سويسرا، وكذلك الأستاذان: هوتسنكشرلي Hozenkoecherle وبومجارتنر Baumgartner قاما بعمل أطلس لغوي للقسم الألماني من سويسرا.

ومن الأطالس للبلاد العربية أطلس لغوي صغير لسوريا ولبنان وفلسطين، نشره المستشرق برجشتريسر Bergstraesser سنة ١٩١٥م.[٥]

وقد قام برجشتريسر بعمل تسجيلاته كلها بنفسه في عام ١٩١٤م، بعد أن حصل على إجازة من جامعة ليبزج، ليقضي شهورًا في بلاد الشرق، فسافر إلى الآستانة، ومنها إلى سوريا. وفيها تنقل بين بلادها باحثًا وراء اختلاف اللهجات الدارجة بها، فمكث أولاً في (دمشق)، ثم سافر إلى الجنوب في (معان) ثم إلى (حلب) في الشمال وفلسطين ولبنان.

وكانت حصيلة هذه التسجيلات أن وضع أطلسًا لغويًّا لسوريا وفلسطين، وهو عبارة عن ٤٢ خريطة تفصيلية، وخريطة واحدة إجمالية، مع شرح لغوي في كتاب مستقل، نشر في ليبزج سنة ١٩١٥م.[٦]

أ–أهمّية الأطلس اللغويّ للعربيّة:

أبان شتيجر"Steiger" العالم السويسري الذي له بهذا الموضوع عناية خاصة، عن قيمة الأطلس اللغوي وأهميته للغة العربية بقوله من تقرير له: "وبالنسبة للغة العربية نقول: إن القيام بعمل أطلس لغوي لها سيحدث ثورة في كل الدراسات الخاصة بفقه اللغات السامية؛ لأنه سيكمل من غير شكّ الدراسات التي تعتمد على النصوص القديمة بكشفه عن التطورات المتعلقة باللهجات وباللغات الشعبية العصرية. وسيكون لهذا الأطلس الفضل في إطلاعنا على تاريخ علم الأصوات والتغيرات التي أصابت اللغة العربية في الأماكن المختلفة التي غزتها، وعن مدى انتشارها وتأثرها بالمراكز الثقافية، وتنوع مفرداتها، إلى غير

ذلك من المكتشفات التي لا يمكن أن تتم إلا إذا جمعت هذه المواد. إنه سيكون عملاً ثقافيّاً من الطراز الأول وسيكون تحقيقه عنوان مجد وفخار في تاريخ الثقافة العالمية".[٧]

ب-تسجيل اللهجات العربية تسجيلاً جغرافيًّا على خرائط:

يمكن تطبيق الأطلس اللغويّ في العربية لإبراز اللغة الفصحى بلهجاتها على خرائط جغرافية، كما يمكن أن يُطبّق الأطلس على اللهجات العربيّة المعاصرة بما فيها من قُرب أو بُعد عن الفصحى، ومع ما في دراسة العاميّات من اختلاف حول جدواها وضرر ذلك على الفصحى، لكنّ هذه الدراسة العلميّة حينما تُسجّل على أطلس لغويّ يرى فيها باحثون فوائد علميّة عديدة أذكر أهمّها:

- يعين على دراسة اللهجات في ذاتها، ومعرفة خصائصها.
- يعين على معرفة ما يتصل من اللهجات بالفصحى، وما هو قديم، فنربط بين القديم والجديد، وما هو حديث عهد بحياتنا اللغوية فنحاول تقريبه من الفصحى.

وفيما يلي أذكر بعض التطبيقات للأطلس اللغويّ:

- إخراج الملاحظات اللغويّة لأحد الرحّالة العرب في مجموعة من الخرائط الجغرافية تُضمّ في أطلس واحد خاصّ بما ذكره ذلك الرحّالة من ألفاظ وملاحظات لغوية. ومن أمثلة ذلك محاولتي في كتابي "ابن بطوطة وجهوده اللغوية الجغرافية: ألفاظ الأطعمة والأشربة أنموذجاً"؛[٨] فقد أضفت ملحقاً في آخر البحث عنوانه (ملحق بخرائط لغويّة لألفاظ الأطعمة والأشربة)، أضفت فيه الخرائط الجغرافيّة لمراحل الرحلة، ثمّ ذكرت ألفاظ الأطعمة والأشربة الواردة في كلّ بلد في مربعٍ بجانب الخريطة معنوَناً باسم ذلك البلد؛ أملاً في الإسهام بالربط بين علمي اللغة والجغرافيا.
- إخراج أطلس لغويّ يشتمل على خرائط للقبائل العربيّة التي ذكر العلماء أنّه يُستشهد بكلامها والتي لا يُستشهد بكلامها، فتحدّد الخرائط الموقع الجغرافي للقبيلة مع ذكر خصائصها اللهجيّة المختلفة.

- إخراج أطلس لغويّ شامل للعربيّة في أقدم عصورها، يحوي لهجاتها المختلفة نحواً ودلالةً وأصواتاً، ومع ضخامة هذا المشروع لكنّه سيقدّم صورة جديدة لحالة العربيّة في الأقاليم المختلفة، وسيكشف عن ميادين كل لهجة، والتطور التاريخي في انتشارها أو انحسارها.

ج-طرق عمل الأطلس اللغوي:

تُعرف طريقتان لعمل الأطالس إحداهما ألمانية والأخرى فرنسية:

الطريقة الألمانية: ابتكرها وقام بتنفيذها (فنكر) وخلاصتها: أنه ألف أربعين جملة تمثل أهم ما يجري على ألسنة الناس كل يوم في بلاده، وطبعها على شكل استمارة بها بيانات خاصة. ولهذه الطريقة تفصيلات طويلة ليس هذا مكان ذكرها.

الطريقة الفرنسية: وهي الطريقة السائدة في عمل الأطالس - خلاصتها أن تعمل خريطة للإقليم المراد عمل أطلس له، وتنتخب منه قرى وبلاد يلاحظ في كل منها أن تمثل إلى حد ما البيئة اللغوية التي توجد البلدة أو القرية فيها. وقد بلغ مجموع هذه البلاد في أطلس إيطاليا حوالي أربعمائة بلدة.

والفرق بين الطريقتين في عمل الأطلس أن الطريقة الألمانية تمتاز بالشمول؛ لأنها لا تترك جهة إلا ذكرت رواية اللفظ فيها، على حين تمتاز الطريقة الفرنسية بالدقة؛ لأن الرواد الذين يقومون بجمع مادة الأطلس قد دربوا التدريب الكافي في الناحيتين اللغوية والصوتية، وبذلك يعتبرون ثقة فيما يدونون عن الرواة اللغويين.

هاتان هما الطريقتان المعروفتان لعمل الأطالس اللغوية، وقد اعتمد العلماء السويسريون على الطريقة الفرنسية، مع زيادات وتحسينات أكسبتهم إياها الخبرة والتجربة، لذلك لم يجئ الأطلس اللغوي لإيطاليا صورة طبق الأصل من أطلس فرنسا لجييرون، بل جاء تطورًا له وتنقيحًا لطريقته.[٩]

هاتان الطريقتان أصبحتا قديمتين لاعتمادهما على الوسائل الورقية والخطوات التقليدية، وفي الوقت الحاضر يمكن تطوير طريقة عمل الأطلس اللغوي اعتماداً على

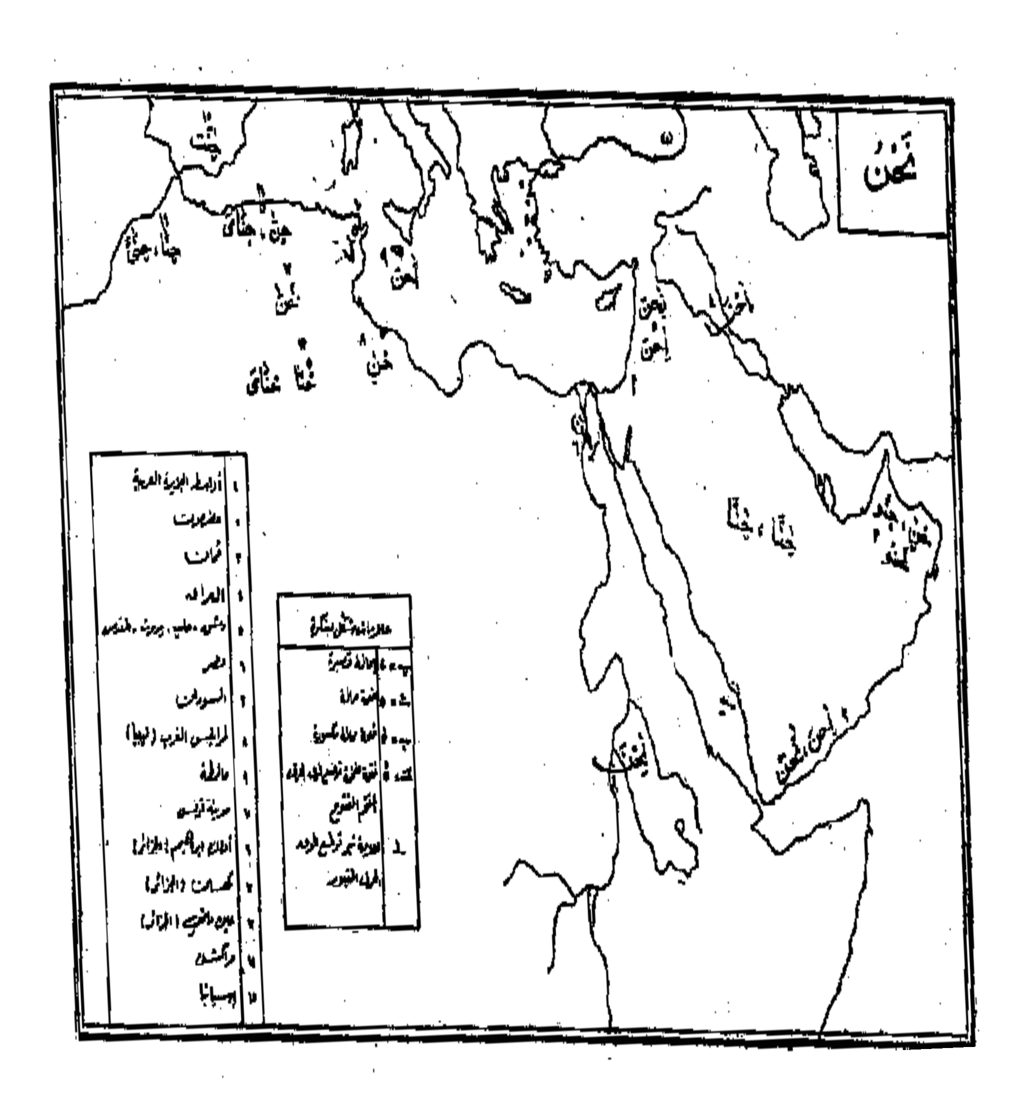
الإمكانات التي يتيحها الحاسب الآلي ووسائل الاتصالات الأخرى، إلى جانب الاستفادة من نظام تحديد المواقع العالمي بالأقمار الصناعية GPS في تحديد المواقع الجغرافية ذات الظواهر اللغوية، ولا شكّ أن هذا مما يعطي الأطلس اللغوي قيمة أكبر، إلى جانب التقدم الكبير في رسم الخرائط الجغرافية بالحاسوب، والتصوير الرقمي للمواقع. كل هذا يجعل من الطرق المعروفة لإعداد الأطالس اللغوية قديمة ويعطي إمكانية الوصول إلى طرق أخرى أكثر دقةً وسرعة.

***د- محاولات لصنع أطلس جغرافي للعربيّة*:**

أمثّل هنا ببعض المحاولات التي قام بها بعض الباحثين لصناعة أطلس لغويّ، سواء أكان خاصّاً بإقليم محدّد أم كان أكبر من ذلك، ويدخل فيه ما إذا جاء استعمال الخرائط الجغرافية لإبراز ظواهر لغوية مدروسة:

١- قام **خليل محمود عساكر** خبير لجنة اللهجات في مجمع اللغة العربية بالقاهرة في صيف عام ١٩٤٨م برحلة لغوية على نفقة كلية الآداب بجامعة القاهرة إلى مديرية الفيوم مدة شهر كامل، زار أثناءه عشرًا من المدن والقرى، في نواحيها الشمالية والجنوبية والغربية، ارتيادًا لمناطقها، وتمهيدًا لعمل أطلس لغوي لمصر، وقد جمع منها مادة كافية لإعطاء فكرة أولية عن مناطق اللهجات في الفيوم.[١٠]

وفيما يلي نموذج من الخرائط التي أعدّت للأطلس [وهي نموذج لظواهر لهجية معاصرة]:


نحن
٢ حضرموت
٣ عمان
٤ العراق
٦ مصر
٧ السودان
٨ طرابلس الغرب (ليبيا)
٩ مالطة
١٤ مراكش
١٥ اسبانيا

٢- ختم **أحمد عبد الله عبد ربه ياغي** رسالته للدكتوراه (الملاحظات اللغوية للجغرافيين العرب: دراسة في ضوء علم اللغة) بخرائط جغرافية لغوية للتبادلات الصوتية التي ذكرها الجغرافيون، وقد بدأ بخريطة تبين أماكن سكنى القبائل العربية في الجزيرة العربية، لتتضح أصول التبادلات لأن أصولها منسوبة إلى القبائل العربية، وقد اعتمد في توزيع التبادلات على ثلاثة أركان: الأول: تحديد نوع التبادل، الثاني: نسبته إلى القبائل العربية في الجزيرة، الثالث: انتشار التبادلات في الأقاليم الجغرافية المختلفة، وجعل لكل تبادل رمزاً أبجدياً.

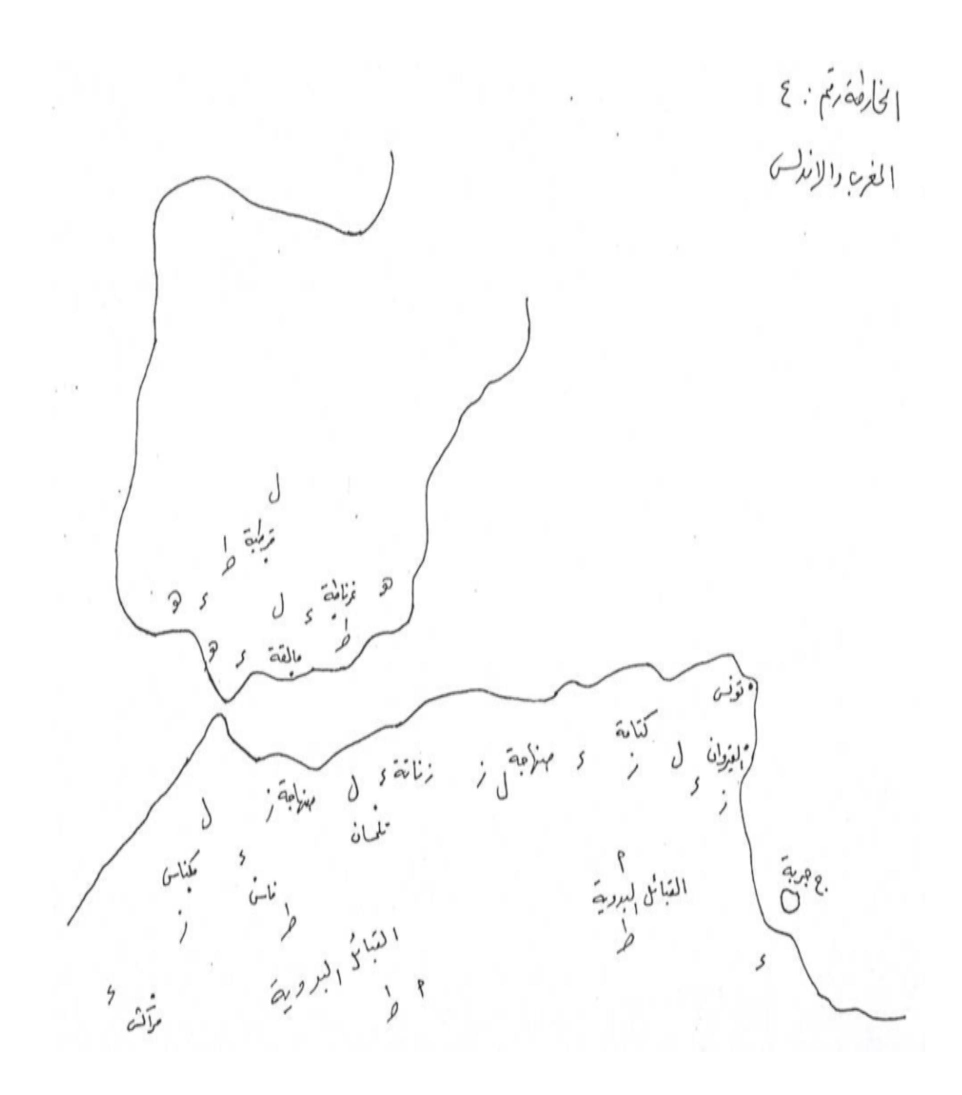
أما الخرائط فقد قسمها إلى ثلاثة أنواع: الأول: خرائط خاصة بالتبادلات الصوتية الشائعة في المناطق العربية، الثاني: خرائط خاصة بالتبادلات الصوتية غير الشائعة مع انحصارها في إقليم معين، الثالث: خرائط تبين أشهر التبادلات الصوتية للأصوات العربية في المناطق غير العربية.

وقبل أن يورد خرائط النوع الأول للتبادلات الشائعة، وهي أربع خرائط، ذكر أنواع التبادل والقبائل والمناطق المنسوب إليها، وجعل لكل تبادل رمزاً، وبلغ عددها ثلاثة عشر تبادلاً، أذكرها فيما يلي باختصار دون ذكر المناطق التي وقع فيها الإبدال:

إبدال الهمزة عيناً، والعين همزة/ ب- إبدال الهمزة هاءً، والهاء همزة/ ج- إبدال الهمزة واواً، والواو همزة/ د- إبدال الهمزة ياءً/ هـ - إبداء التاء طاءً، والطاء تاءً/ و- إبدال الثاء فاءً، والفاء ثاءً/ ز- إبدال الضاد ظاءً، والظاء ضاداً/ ح- إبدال العين نوناً/ ط- إبدال القاف كافاً، والكاف قافاً/ ي- إبدال الكاف شيناً/ ك — إبدال لام التعريف ميماً/ ل - إبدال اللام نوناً، والنون لاماً/ م- إبدال النون ميماً، والميم نوناً.

وقد وضع الحرف الذي يشير إلى أحد الإبدالات السابقة في الخرائط الأربع التي رسمها وهي (أماكن سكنى القبائل العربية) و(العراق وبلاد الشام) و(مصر وليبيا) و(المغرب والأندلس)، فقد وضع الحرف المقصود على الخريطة بجانب اسم القبيلة التي نُسب إليها هذا التبادل.[١١]

وفيما يلي أورد خريطة من الخرائط الأربع، وهي **خريطة (المغرب والأندلس)**، وستتضح فيها البلدان والقبائل التي نُسب إليها كل إبدال مما سبق ذكره، فبالنظر إلى اسم القبيلة والحرف الذي بجانبها نعرف الإبدال الذي نُسب إليها.



ثم ذكر أنواع التبادلات غير الشائعة وهي خمسة وعشرون تبادلاً، وقد بلغت خرائط هذا النوع خمس خرائط.

ثم ذكر أنواع التبادلات في الأقاليم غير العربية، وهي اثنا عشر تبادلاً صوتياً، وعدد خرائط هذا النوع ثلاث خرائط.

ما قدّمه أحمد ياغي –هنا– من محاولةٍ لرسم خرائط جغرافية للتبادلات الصوتية التي ذكرها بأنواعها في الأقاليم المختلفة محاولة متميّزة؛ لكونها تمثل جزءاً من أعمال الأطلس الجغرافي، فقد رسمَ خرائط جغرافية لمجموعة كبيرة من التبادلات الصوتية التي ذكرها الجغرافيون، وبذا فهذه الخرائط تشكل أطلساً جغرافياً لهذه التبادلات.

غير أنّ الباحث الكريم مع تميّز بحثه في موضوعه وجمعه للملاحظات اللغوية في كتب الجغرافيين، ومع ما بذله من جهد كبير في دراستها في فصول الرسالة، وهو عملٌ متميّز لا أعلم أنه سُبق إليه، لكنّ الخرائط الجغرافية التي ذكرتُها لم يبذل فيها جهداً يناسب الجهد الذي بذله في الدراسة؛ فقد اكتفى برسمٍ يدويّ غير دقيق لكل خريطة، مع كتابة أسماء المدن والأقاليم بخطّ يدويّ غير واضح، وكذا كتابته للحروف التي رمزَ بها إلى التبادلات الصوتية المختلفة ليست واضحة، فقراءة بعضها قد تصعب على القارئ، لكنّ اتجاهه إلى رسم تلك الخرائط واستعماله الرموز للإشارة إلى التبادلات الصوتية، مع تحديد المنطقة الجغرافية لكل تبادل هو مما يُحمد له.

٣- قدّم **إبراهيم محمد الخطابي** دراسة قيّمة عن الأطالس اللغويّة في بحثٍ عنوانه: "الأسس النظرية والمنهجية لأطلس لسان المجتمع العربي" وفصّل فيه الحديث حول أطلس لسان المجتمع العربي، وقصدَ به أطلساً لغوياً للهجات العربيّة المعاصرة، وهو وإن لم يبدأ بهذا الأطلس لكنّه طرح فكرته وخطّته، وفيما يلي أعرض مختصراً لما طرحه:

يتلخص منهجه في جمع المعلومات اللسانية الممثلة من عينات لهجية وتحليلها تحليلاً كمياً، لتحديد طبيعة التوزيع اللساني، جغرافياً ومجتمعياً، وتحديد كثافة التوزيع كما يفعل عالم الجغرافية، في دراسة الكثافة السكانية، وطبيعة الانتشار واتجاهاته، ورسم خرائط أولية، وربط الانتشار والتوزيع بالعوامل التاريخية والنزوح.

واللبنة الأساسية في منهجه المختار لها ثلاثة أركان:

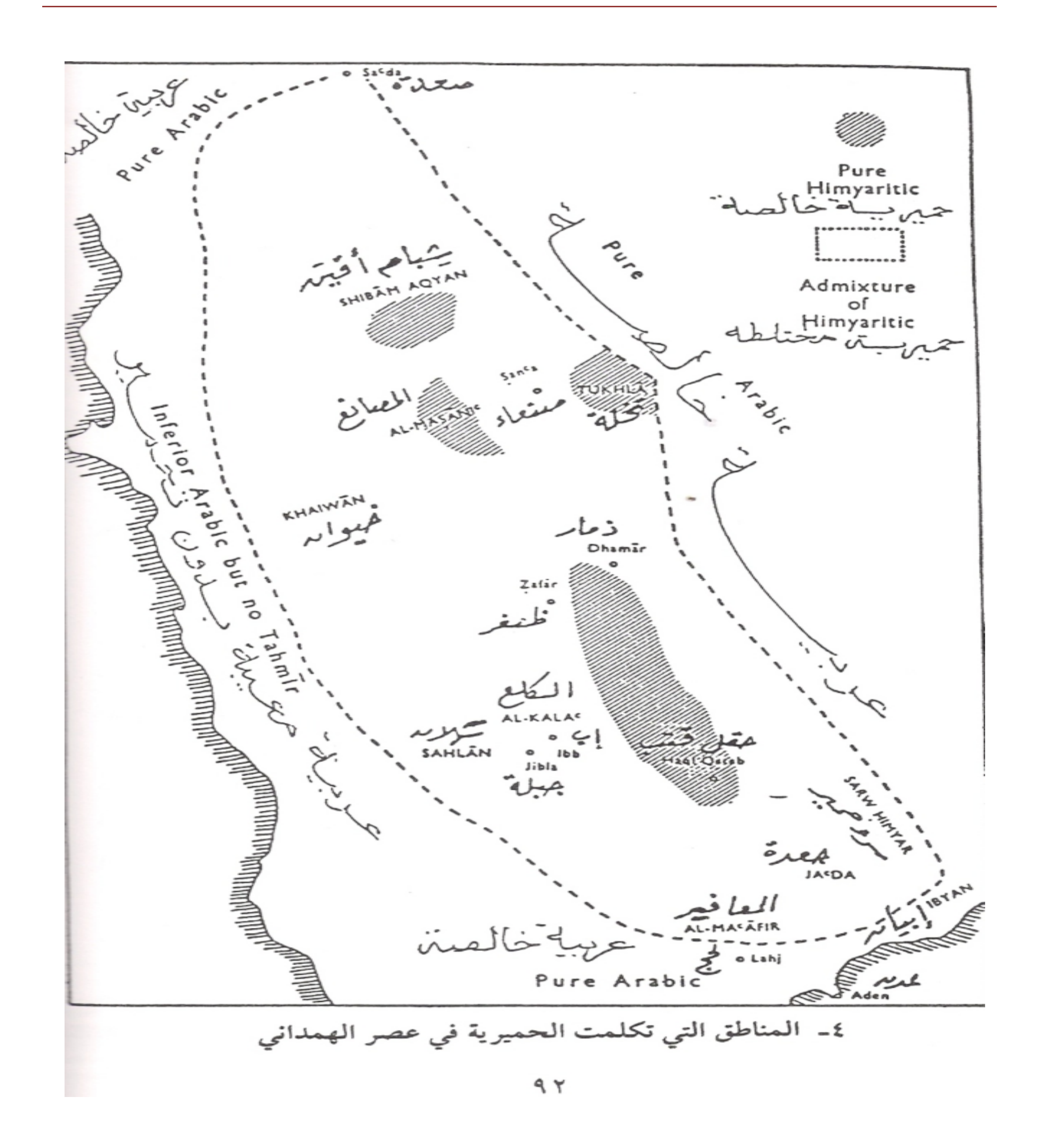
١- تحديد المجتمع المنْوي دراسته جغرافياً وتاريخياً.

٢- تحديد أبعاد المتغيرات الجغرافية والمجتمعية التي تؤثر في اللسانيات وتصنيف المتغيرات.

٣- تحديد حجم العينات بعدد الأشخاص، وتحديد انتمائهم المجتمعي.

وقد قدّم تفصيلات دقيقة للعمل في هذا المشروع المقترح.[١٢]

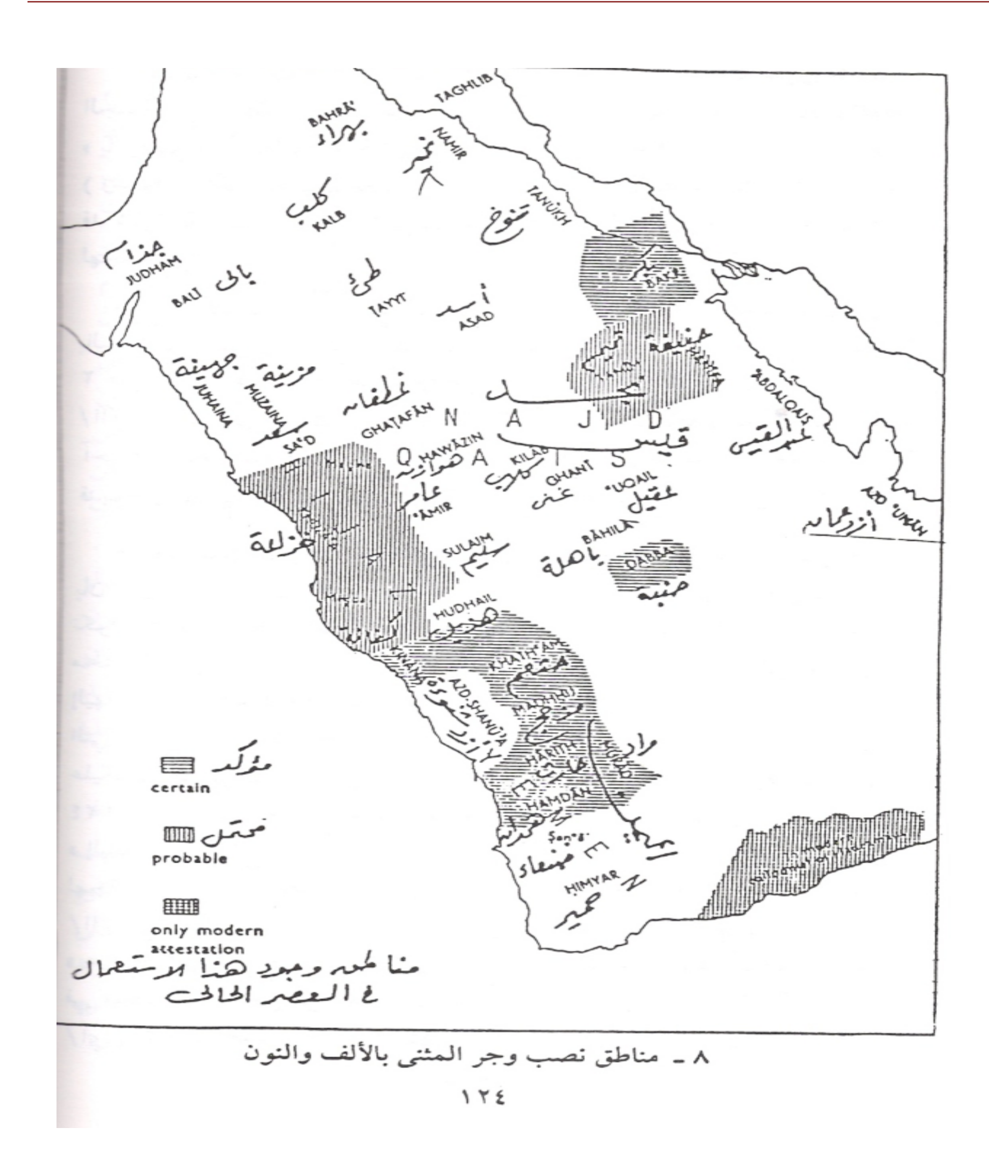
٤- استعان **تشيم رابين** Chaim Rabin في دراسته القيّمة للهجات العربية الغربية القديمة[١٣] برسم عدد من الخرائط الجغرافية لإبراز ظواهر لغوية متعدّدة، وقد رسم عشرين خريطة، وهي خرائط تعدّ نموذجاً مصغّراً للأطلس الجغرافي للعربيّة، وللتعرّف على محاولته هذه سأختار ثلاثاً منها لعرضها هنا مع التعليق المختصر عليها:



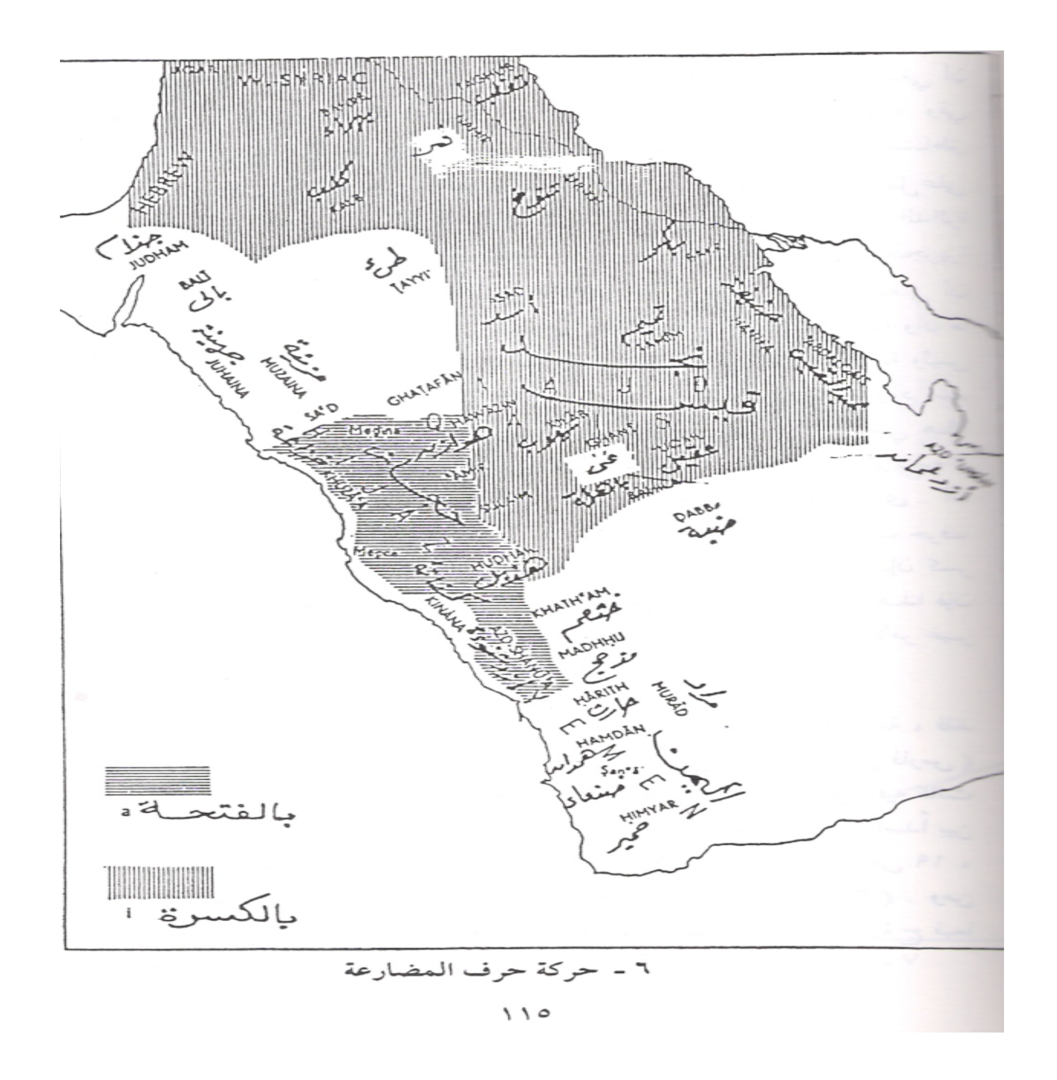
٤- المناطق التي تكلمت الحميرية في عصر الهمداني

٩٢

في هذه الخريطة صوّر رابين ما ذكره الهمداني عند حديثه عن لغات الجزيرة من ذكر المناطق التي تحدثت الحميرية الخالصة والتي خلطت كلامها بالحميرية.[١٤]



ذكر رابين إلزام المثنى الألف في جميع حالاته وذكر القبائل المختلفة التي نُسبت إليها هذه اللغة،[15] وقد حاول في هذه الخريطة تصوير التوزيع الجغرافي لهذه اللغة.



٦ - حركة حرف المضارعة

١١٥

ذكر رابين لغتي حركة حرف المضارعة، وهما الفتح والكسر، فلهجات الحجاز وأعجاز هوازن وأزد السرات وبعض هذيل الفتح، وعند تميم وقيس وأسد وربيعة وعامة العرب الكسر،[١٦] وقد صور رابين مواضع هاتين اللغتين على هذه الخريطة.

القضية الثانية: توزيع اللغات المختلفة في جميع أنحاء العالم وذكر الفصائل اللغوية

ممّا عُني به علم اللغة دراسة انتشار اللغات في العالم وتوزيعها إلى فصائل ومجموعات تجمع بينها خصائص معيّنة، بحسب الأسس التي يُبنى عليه ذلك التقسيم، وهذا العمل يدخل في ميدان علم اللغة الجغرافي.

ومع اختلاف اللغويين في تصنيف اللغات إلى مجموعات، لكنّ تلك التصنيفات يتبعها تحديد المواطن الجغرافية لتلك المجموعات، وقد اختلفت تلك التقسيمات بين تقسيمات كبرى تضم كل فصيلة فيها مجموعات من اللغات، وتقسيمات صغرى يخصّ القسم الواحد عدداً أقلّ من اللغات، لكنّ تلك التقسيمات تعتمد على توزيع جغرافي للغة.[١٧]

القضية الثالثة: دراسة اللهجات وعلاقة بعضها ببعض

اعتنى اللغويون المحدثون بدراسة اللهجات في جميع اللغات، وعدّوا دراسة اللهجات جزءاً من دراسة اللغات الأُمّات لها؛ فدراسة اللهجة وربطها بلغتها الأمّ يمكن بها معرفة التغيّرات التي أصابت اللغة عند تفرّعها إلى لهجات، ومدى قُرب اللهجة وبُعدها عن اللغة الأمّ.

ولأهميّة هذا الميدان جعله بعضهم علماً بمصطلح خاصّ به هو (علم جغرافيا اللهجة Dialect Geography) وتتصل به مسائل تفصيلية فرعية يصعب حصرها، منها: كيف تختلف لهجات اللغة الواحدة، وما العلاقات بينها؟ وما درجة استقلاليتها؟ وما حدود مناطق كلّ لهجة؟[١٨]

والدراسات التي تتناول اللهجات العربية ليست على منهج واحد في التناول، بل تأتي بمناهج مختلفة ولأغراض متعدّدة، ويمكنني هنا سرد أسماء مجموعة من الأعمال التي تدخل في هذا الميدان مع اختلافها:

أ- من كتب العرب عن اللهجات:

- "دراسات في لهجات شمال وجنوب الجزيرة العربية" لأحمد حسين شرف الدين، وهي دراسة قيمة مختصرة تجمع بين الظواهر اللهجية القديمة في لهجات الجزيرة واللهجات الحديثة.

- "في اللهجات العربية"، لإبراهيم أنيس، ولهذا الكتاب قيمة كبيرة لتعلقها بلهجات الفصحى وظواهرها، مع ربطها بالظواهر المعاصرة.
- "المعجم الكامل في لهجات الفصحى" لداود سلوم، وهو معجم قيّم جمع فيه مؤلفه الظواهر التي ذكرها العلماء للهجات العربية المختلفة، بذكر الظاهرة تحت اللفظ الذي وردت فيه، وذكر مصادرها القديمة التي ذكرتها.
- "معجم لغات القبائل والأمصار" لجميل سعيد، داود سلوم، وهو معجم قيّم في ذكر اللفظ الذي ورد في اللغة أو في القرآن الكريم مع ذكر القبيلة التي نُسب إليها.

ولا يخفى أنّ دارسي العربيّة من غير العرب أكثر عناية بدراسة اللهجات، وقد قامت دراسات متعدّدة أذكر منها دراستين ممّا تُرجم إلى العربية:

- "اللهجات العربية الغربية القديمة" لتشيم رابين، ترجمه عبد الرحمن أيوب، وقد قدّمت عنه عرضاً عند ذكر بعض الدراسات التي تدخل في علم اللغة الجغرافي، كما أني أوردت العديد من خرائطه الجغرافية اللغوية، ولا شكّ أن دراسته تدخل في ميدان اللهجات، ولا حاجة لمزيد من التفصيل هنا.
- "دراسات في لهجات شرقي الجزيرة العربية" لمؤلفه ت. م. جونستون، ترجمه أحمد بن محمد الضبيب، وهي دراسة حول لهجات الخليج العربي بدوله المتعددة، ومع كونها تتعلق باللهجات العامية لكنّها تدلّ على جهد علمي جدير بالاهتمام، وقد استعان بعدد من الخرائط الجغرافية لتصوير مناطق توزيع اللهجات، وإبراز بعض الظواهر اللهجية على المواقع الجغرافية.

ب- ما يدخل تحت هذا العلم من جهود العرب السابقين لغويّين وجغرافيّين:

ورد عن العرب لغويين وجغرافيين إشاراتٌ ووقفاتٌ تدخل في حقل اللغويات الجغرافية، وهم وإن لم يعرفوا هذا المصطلح أو ما يرادفه من المصطلحات الحديثة، لكنّهم أدركوا الصلة الوثيقة بين اللغة والجغرافيا، والحاجة إلى العلمين معاً في بعض القضايا، فاللغوي في

بعض المسائل اللغويّة يربط بين اللغة والموقع الجغرافي، والجغرافي عند حديثه عن بعض المواضع يشير إلى مسألة لغويّة.

وفيما يلي أذكر بعض تلك القضايا عند **اللغويّين**:

الأولى– الفصاحة وحدودها الجغرافية عند اللغويين العرب:

من عناية علماء العربيّة وحرصهم على نقاء اللغة وسلامتها وضعهم حدوداً مكانيّةً وزمانيّةً للفصاحة، مع اختلافهم في تلك الحدود نظريّاً وتطبيقيّاً، أمّا الحدود المكانيّة – وهي المتصلة بموضوعنا – ففي الجانب النظريّ وردت أقوالٌ مختلفة أحياناً ومتناقضةٌ أحياناً عن القبائل التي شهد العلماء لها بالفصاحة والقبائل التي رأوا أنّ لغتها لم تسلم من الفساد، فجعلوا القبائل التي عاشت في وسط الجزيرة وابتعدت عن المؤثرات الخارجيّة فصيحة، وذهبوا إلى أن قبائل أطراف الجزيرة لا يُستشهد بكلامهم بسبب اختلاطهم بالأعاجم، أمّا في الجانب التطبيقي فالعلماء لم يلتزموا جميعاً بما اشتهر عنهم حول تلك القبائل فاستشهد بعضهم بكلام متحدّثين من بعض تلك القبائل التي لا يُستشهد بكلامها. لكنْ مع كل هذا، فقد وضع العلماء حدوداً ومعايير مكانيّةً للفصاحة دليل على ملاحظتهم ارتباط اللغة بالموضع الجغرافي.[١٩]

والمطلع على كتب اللغة يدرك عناية علماء العرب بهذه المسألة، فحرصهم الكبير على العربيّة جعلهم يسعون إلى وضع معايير لمعرفة الفصيح من البشر والكلام، ولا شكّ أنّ هذا العمل ممّا يدخل في ميدان علم اللغة الجغرافي باصطلاحه الحديث، فهي قضيّة لغويّة لها صلة بالجغرافيا.

ومن أشهر الأقوال التي حملت تفصيلاً في ذكر القبائل الفصيحة قول أبي نصر الفارابي في أول كتابه المسمى (الألفاظ والحروف)، فقد ذكر عدداً من القبائل التي يُحتجّ بها والتي لا يُحتجّ بها، وهو نصّ طويل يمكن مراجعته في موضعه.[٢٠]

ولا يخفى على قارئ النصّ التفاصيل المرتبطة بالموقع الجغرافي للقبائل التي ذكرها مع كونه نصّاً لعالم لغويّ يتحدث عن الفصاحة، مع أنّ تلك التفاصيل لم يُجمع عليها العلماء

لكنّها مثالٌ واضحٌ للربط بين علمي اللغة والجغرافيا، كما أنّهم ربّما خالفوا أحياناً تلك الحدود فاستشهدوا بمن ذكروا أنّه لا يُستشهد بكلامه.

وفي نصّ لغويّ آخر نلحظ اختلافات عمّا ورد في نصّ الفارابي، حول أسماء القبائل التي يستشهد بكلامها والتي لا يستشهد بكلامها، ولأهميّة النصّ لكونه عن الأصمعي تأتي أهميّته للدلالة على ارتباط قضية الفصاحة بالموقع الجغرافي، قال الأصمعي: "قال أبو عمرو بن العلاء: أفصح الشعراء لساناً وأعذبهم أهل السروات، وهن ثلاث (وهي الجبال المطلة على تهامة مما يلي اليمن): فأولها هذيل، وهي تلي السهل من تهامة، ثم **بجيلة** في السراة الوسطى، وقد شركتهم ثقيف في ناحية منها، ثم سراة الأزد أزد شنوءة وهم بنو الحارث بن كعب بن الحارث بن نصر بن الأزد. وقال أبو عمرو أيضاً: أفصح الناس عليا تميم وسفلى قيس، وقال أبو زيد: أفصح الناس سافلة العالية وعالية السافلة، يعني عَجُز هوازن، قال: ولست أقول: قالت العرب إلا ما سمعت منهم، وإلا لم أقل: قالت العرب... وأهل العالية أهل المدينة ومن حولها ومن يليها ودنا منها، ولغتهم ليست بتلك عنده".[٢١]

في النص السابق ما يدلّ على اختلاف تلك المعايير عند العلماء؛ ففي نص الفارابي جعل قبيلة ثقيف وأهل الطائف ممن لا يؤخذ منهم لمخالطتهم تجار اليمن المقيمين عندهم، أما ثقيف في النصّ الثاني فهي في ناحية منها مثل بجيلة من الفصحاء.

الثانية– الفروق بين اللهجات العربيّة القديمة في البلاد المختلفة، وأثر البيئة الجغرافية فيها:

عرفَ اللغويّون القدماء اللهجات عند تدوين الفصحى ودراستها، ولا تخفى جهودهم الكبيرة في تدوين لهجات القبائل عند تقعيدهم اللغة لبيان اختلافهم في بعض قواعد النحو، وكذا عند تدوينهم ألفاظ اللغة ومعانيها وأصواتها ودلالاتها عند جمع الثروة اللغوية، وهم مع ذلك كانوا يربطون بين اللهجة وأهلها وموطنهم الجغرافي، وهي مظاهر على الربط بين اللغة والجغرافيا.

ومما يجدر ذكره هنا ما ذكره اللغويون من الفروق بين لغتي الحجازيين والتميميين في النحو والدلالة والأصوات، وكذلك لهجات القبائل الأخرى، ولا يخفى أن كتب اللغة لا

تكاد تخلو من الإشارة إلى الاختلافات اللهجية بينها، سواء في كتب النحو والتصريف أو المعاجم أو الأصوات.

ومثل اللغويين تأتي جهود **الجغرافيين** وإشاراتهم التي تدخل تحت علم اللغة الجغرافي، وفيما يلي أذكر بعض تلك الجهود:

الأولى– إشارات الجغرافيّين والرحّالة العرب إلى التغيرات الصوتية التي تصيب اللغة في البيئات الجغرافية المختلفة:

وهذا ميدان واسع تدخل تحته الكثير من ملاحظات الجغرافيين حول لغات البلدان في مستويات اللغة المختلفة من صوتية ونحوية ودلالية وصرفية، ومن الإشارات إلى التغيرات الصوتية ما يلي:

إبدال أهل المغرب اللام نوناً:

- ذكر الإدريسي (ت ٥٦٠هـ) أنهم يقولون لـــ (قلّة الجبل): (قنّة الجبل).
- وذكر ياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ) أن بعض أهل المغرب يقولون: تنمسان بدلاً من تلمسان.[٢٢]

إبدال القاف همزة:

نسبه العبدري (ت ٦٨٨هـ) إلى أهل القاهرة وقال: (اللكنة فيهم فاشية، وجمهورهم يجعل القاف والكاف همزة).[٢٣]

وهو ميدان واسع تكثر أمثلته وتقسيماته.

الثانية– إشارات الجغرافيين إلى تسميات أهل البلدان للأشياء:

كان الجغرافيون عند حديثهم عن البلدان يذكرون تسمياتِ أهلها للأشياء التي يرونها، وعند ذكرهم تلك التسميات فإنهم يذكرون التسميات التي تختلف عما يعرفونه.

وأكثر الرحالة سلكوا هذا المسلك، ولا عجب من ذلك؛ فالإنسان مُغرم بذكر ما يستغربه من مسمّيات أو أسمائها، وممن اعتنى بذكر تسميات البلدان المقدسي وابن بطوطة، وفيما يلي أمثلة غزيرة لهذه الظاهرة تدليلاً على عناية جغرافيي العرب بهذا العلم:

-ما ذكره المقدسي من تسميات بعض البلاد للأشياء:

ذكر أبو عبد الله المقدسي في رحلته "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم"[٢٤] بعضاً من الألفاظ التي يطلقها أهل الأقاليم على الأشياء، ومع كونها أسماء متفرقة لا تقع في موضوع واحد لكنّ جمْعها وإيرادها يعطي نماذج عن تلك التسميات، ومن ذلك:

- تسمية أهل العراق **العجم أهل فوق وأهل الغرب أهل أسفل**. [ص ٢٨].
- تسمية أهل مكة المكرمة ما نزل عن المسجد الحرام **المسفلة**، وما ارتفع عنه **المعلاة**. [ص٧٥].
- تسمية أهل مكة المكرمة حِجْر إسماعيل **الحَطيم**. [ص٧٥].
- تسمية أهل مكة المَنّ المعروف في جميع بلاد الإسلام الرطل. [ص٩٤].
- تسمية أهل العراق كل ما كان وراء الفرات **شاماً**. [ص١٣٤].
- تسمية أهل الأندلس الرستاق **إقليماً**. [ص١٩٣-١٩٤] .
- تسمية أهل جرجان العالم **معلّماً**. [ص٢٨٣].

-ما ذكره ابن بطوطة من تسميات بعض الشعوب للأشياء:

اعتنى ابن بطوطة في رحلته[٢٥] بأسماء الأشياء التي يراها ويصفها، وقد التفت إلى اختلاف تسميات تلك الأشياء في البلاد المختلفة، وفيما يلي بعض المواضع التي ذكر فيها تسميّات الشعوب للأشياء وما يتصل بها:

مما ذكره من تسميات العرب:

- تسمية المغاربة أم الحُبين بـــ (حنيشة الجنة). [٧٩/٣].
- تسمية المصريين الفندق بـــ (الخان) [٢٣٢/١].
- تسمية أهل مكة القفّة بـــ (المِكْتَل) [٣٨٧/١].
- تسمية أهل جزيرة سواكن رئيس المركب بـــ (الرُبّان) [١٠٠/٢].
- تسمية أهل السودان الذئب بـــ (وُجّين) [٢٧٣/٤].

مما ذكره من تسميات العجم:

- تسمية الهنود المنج المطبوخ مع الأرز بـــ (كُشَري). [٩٦/٣].
- تسمية الهنود لقيمات القاضي بـــ (الهاشمي) [٩١/٣].
- تسمية أهل خوارزم الخبز المعجون بالسمن بـــ (الكُليجا). [١٢/٣].
- تسمية أهل الهند العجلة بـــ (العربة) [٢١٨/٢].
- تسمية أهل الهند زيت السمسم بـــ (السيراج) [٤٠/٣].
- تسمية أهل الهند الباب بـــ (دروازة) [١٠٥/٣].
- تسمية أهل جزيرة سيلان آدم بـــ (بابا)، وحوّاء بـــ (ماما) [٨٠/٤].

الثالثة– إشارات الجغرافيّين اللغويّة إلى اختلاف تسميات الأشياء من بلد إلى آخر:

كان الجغرافيون، وأكثرهم رحّالة، يذكرون الحالة اللغوية للبلدان التي يتحدثون عنها، ويذكرون أسماء الأشياء فيها، وهم بذلك يشيرون إلى ترادف الأسماء للدلالة على شيء واحد، وفيما يلي أورد أمثلة غزيرة لهذه الظاهرة من رحلة أبي عبد الله المقدسي، فهو من أبرز من اعتنى بذكر اختلاف البلدان في التسميات، بل إنّ له منهجاً فريداً سأذكره فيما يلي:

–*ذكر المقدسيّ ما تختلف فيه الأقاليم*:

من الإشارات اللغويّة لدى الجغرافيّين والرحّالة ذكرُ ما تختلف فيه الأقاليم من التسميات، ومن أبرز من عُني بهذا الجانب المقدسيُّ في رحلته (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم)، فقد ذكر في بداية كتابه مجموعةً من المترادفات التي يستخدم أحدها إقليمٌ ويستخدم الآخر إقليمٌ آخر، فذكر مائةً وثمانين كلمة تنقسم إلى مجموعات من الألفاظ المترادفة، كل مجموعة لفظان أو ثلاثة أو أكثر، بل إنّه سعى إلى أن يستخدم في حديثه عن الإقليم الكلمة المرادفة الشائعة فيه، قال عن ذلك: "وسنتكلم في كل إقليم بلسانهم ونناظر على طريقتهم، ونضرب من أمثالهم، لتُعرف لغتُهم ورسومُ فقهائهم، فإن كنّا في غير الأقاليم مثل هذه الأبواب تكلّمنا بلغة الشام، لأنها إقليمي الذي به نشأتُ" [ص٣٩].

أما عن الألفاظ التي ذكر المقدسي اختلاف الأقاليم فيها فسأذكر فيما يلي بعضها، لكنّه لم يشر عند سرده الألفاظ إلى أيّ البلاد ينتسب كل لفظ، وإنّما سعى إلى استعمال اللفظ في كلامه عند حديثه عن البلد الذي يشيع فيه ذلك اللفظ، كما أنّه لم يستعمل كلّ تلك الألفاظ المائة والثمانين، وإنّما استعمل بعضها، وفيما يلي أمثلة باستعمال المقدسي في كلامه للمجموعتين (**لحام جزار قصاب**)، (**كرسف عطب قطن**):

١- (لحام جزار قصاب):

لّحّام: قال في حديثه عن القيروان في إقليم المغرب: "ولهم باب اللحامين" [ص١٨٧].

جَزّار: قال عن اليمن في إقليم جزيرة العرب: "يقع عصبيات بين الخياطين وهم شيعة والجزارين وهم سنة" [ص٩٦].

وقال عن سجلماسة في إقليم المغرب: "لها باب القبلي باب الغربي باب غدير الجزارين باب موقف زناتة وغيرها" [ص١٩١].

قَصّاب: قال عن شيراز في إقليم فارس: "كول: عامرة الجامع في البزازين والقصابين والخبازين ومن الوجه الآخر ميدان شربهم من نهر" [ص٣٣٠].

٢- (كرسف عطب قطن):

كرسف: لم يستعملها في كتابه.

عُطْب: قال عن إقليم فارس: "كازرون: عامرة كبيرة هي دمياط الأعاجم وذلك أن ثياب الكتان التي على عمل القصب وشبه الشطوي، وإن كانت من عُطْب تعمل بها وتباع فيها إلا ما يعمل بتوز" [ص٣٣١].

قُطْن: قال عن جزيرة العرب: "... أكثر ثيابهم القُطْن منتعلين لا يقولون بالمماطر ولا ثلج لهم ولا جليد ولا فواكه في الشتاء ولا قديد إلا ما يجفف من ذبائح منى" [ص٩٠]. وقال عن التجارات في إقليم آقور: "ومن حران القبيط وعسل النحل في أدنن والقُطْن والموازين" [ص١٢٨]. وقال عن إقليم الشام: "والتجارات به مفيدة، يرتفع من فلسطين الزيت والقطين والزبيب والخرنوب والملاحم والصابون والفوط. ومن بيت المقدس الجبن

والقطن" [ص١٥٤]. واستعمل لفظ (قطن) في حديثه عن خمسة من أقاليم العجم، ولم أذكر أمثلتها اختصاراً.

ويتضح مما سبق أن كثرة النصوص التي استعمل فيها (قطن) في أكثر الأقاليم دليل على شيوع الكلمة فيها، أما (عطب) فلم يستعملها إلا في إقليم فارس، مع مجيء كلمة (قطن) في إقليم فارس أيضاً، أما (كرسف) فلم ترد في كتابه.

وفيما يلي أسرد بعض الكلمات سرداً كما ذكرها المقدسي (بين كل مجموعة خط مائل):

قطان، حلاج/ مِيزاب، مِرزاب، مِزراب، مِثعب/ باقلّى، فول/ قدر، بُرْمة/ زِنبيل، مِكتل، قفّة/ خادم، قيّم، مفرك، بلان/ حصن، قلعة، قهندز، كلات/ مخاصم، خصيم/ حاكم، قاض/ شيرج، سليط/ زجّاج، قواريري/ صفع، صلك/ بقعة، موضع/ قطة، سنّور، دمة، هرّة/ معلم، خادم، أستاذ، شيخ، خصي/ دبّاغ، صرّام، أدمي، سختياني، جلودي/ قرياتي، رستاقي، سوادي/ زراع، فلاح، حراث/ فندق، خان/ زرنوق، دولاب، حنّانة/ مسحاة، مجرفة/ معول، فاس/ ملاح، نوتي.[٢٦]

الرابعة- أحكام الجغرافيّين على لغات البلدان:

أحكام الحسن بن أحمد الهمداني على لغات جزيرة العرب:

مع شهرة الهمداني -لسان اليمن كما لقّب نفسه- جغرافيّاً لكن عُرف عنه عنايته باللغة، وربما كان لتقدّم عصره (توفي بعد سنة ٣٤٤هـ) أثر في عنايته باللغة وتميّز أسلوبه بالجزالة، ومع أنّ كتابه (صفة جزيرة العرب) كتاب جغرافيّ تحدّث فيه عن الجزيرة ومواضعها، لكنّه لم ينسَ الحكم على لغاتها فأصدر مجموعة كثيرة من الأحكام جاءت متصلة في نصّ مترابط، ولا تخفى أهميّته ودلالته على أحد مظاهر الجغرافيا اللغوية، ومع غموض بعض كلماته وكثرة الأسماء التي أوردها للقبائل تبقى قيمة النصّ في الدلالة على عناية الجغرافيين في وقت مبكّر بما يتصل من اللغة بالجغرافيا، وفيما يلي مقاطع من نصّ كلامه مقسماً على فقرات متوالية:

قال الهمداني: (لغات أهل هذه الجزيرة: أهل الشحر والأسعاء ليسوا بفصحاء. مَهْرة غُتْم يشاكلون العجم. حضرموت ليسوا بفصحاء وربما كان فيهم الفصيح، وأفصحهم كندة وهَمْدان وبعض الصَّدَف. سَرْوُ مَذْحج ومأرِب وبَيْحان وحَريب فصحاء ورَدِيُّ اللغة منهم قليل.... صنعاء في أهلها بقايا من العربية المحضة ونبذ من كلام حمير، ومدينة صنعاء مختلفة اللغات واللهجات لكل بقعة منهم لغة، ومَنْ يُصاقِب شعوب يخالف الجميع.... وأما العروض ففيها الفصاحة ما خلا قراها، وكذلك الحجاز فنجد السفلى فإلى الشام وإلى ديار مضر وديار ربيعة فيها الفصاحة إلا في قراها.

فهذه لغات الجزيرة على الجملة دون التبعيض والتفنين).[٢٧]

ومع ما في أحكام الهمداني من غموض وكثرة لكني رأيت أهمّيّة هذا النصّ لكونه في القرن الثالث الهجري، كما أنّه يدلّ على عناية الهمداني بالجانب اللغوي من حديثه عن البلدان، ولذا أوردته بما فيه من مشكلات.

وقد وقف تشيم رابين Chaim Rabin عند نصّ الهمداني وقفة عميقة، فقد تساءل في البداية عن المقياس الذي اتخذه الهمداني في الحكم على اللغات بالجيد أو الرديء؛ لأن أغلب اللهجات الذي ذكرها لم تبق لنا دون تغيير، وقد ذكر احتمال أن تكون حركة التعريب قد أحدثت أثرها نتيجة لوفود عرب الصحراء من ناحية، ولحركة التعليم الإسلامية التي ظلت حية طوال ثلاثة عشر قرناً.

وقدم صورة للوضع اللغوي ما بين القرنين الرابع — وهو زمن الهمداني — والعاشر، فذكر أن العربية الصحيحة كانت تستعمل في المرتفعات الشرقية من السرات، وفي الجنوب والمناطق المجاورة للمرتفعات وهي المنحدرات الغربية للسرات، وهي مواضع اللهجات التي وصفها الهمداني بأنها متوسطة أو خليطى.[٢٨]

أحكام المقدسي على لغات الأقاليم وذكر خصائصها:

حوتْ رحلة المقدسي (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) أحكامه على لغات البلدان ووصفه لها بأوصاف مختلفة، بين مدحٍ وقدح، ومع شهرته جغرافياً لكنّ أحكامه اللغوية جديرة بالدراسة؛ لكونه عرف تلك البلدان ودخلها وسمع أهلها.

جمعت بعض أقوال المقدسي أحكاماً عدّةً على عدد من لغات الأقاليم، أعرض بعضها فيما يلي:

قال في حديثٍ طويلٍ عن خصائص الأقاليم: "... ولا أحسنَ لساناً من أهل بغداد، ولا أوحش من لسان صيدا وهراة، ولا أصحّ من لسان خراسان، ولا أحسن عجميةً من أهل بلخ والشاش، ولا أعفط من أهل البطائح، ولا أسلم صدوراً من أهل هيطل، ولا أخير قوماً من أهل غرج الشار" [ص٤٢

وفيما يلي أعرض نموذجاً من أحكامه على لغة الإقليم الواحد:

أ. **إقليم جزيرة العرب:**

- أطلق المقدسي حكمه عن أفصح العرب بقوله: "جميع لغات العرب موجودة في بوادي هذه الجزيرة إلا أنّ أصحّ بها لغة هُذَيل، ثم النّجدين، ثم بقية الحجاز، إلا الأحقاف فإن لسانهم وَحش. [ص٩١].
- وصفه لسان الأحقاف بأنه وَحش وصف سيتكرّر في مواضع عدّة، وقد وصف أهل الأحقاف بعدم الإفصاح في موضع آخر فقال: "أهل الأحقاف نواصب **غُتْم**" [ص٩٧]، والغُتْمَةُ: العُجمة، والأَغْتَمُ الذي لا يُفصح شيئاً والجمع غُتْم. مختار الصحاح (غتم).
- ذكر المقدسي لغة أهل الجزيرة بقوله: "أهل هذا الإقليم لغتهم العربية إلا بصَحار فإن نداءهم وكلامهم بالفارسيّة" [ص٩١]، وهو هنا استثنى صحار العمانية لكون لغتهم الفارسيّة.
- خصّ عَدَن وجدّة بالحكم فقال عنهما: "أكثر أهل عدن وجدّة فرس إلا أن اللغة عربية" [ص٩١].
- وذكر بعض ظواهر لغة عَدَن التي تخالف اللغة الفصحى، قال: "أهل عدن يقولون لرِجْلَيه: رِجْلينه، وليَدِيه: يَدينه، وقِسْ عليه، ويجعلون الجيمَ كافاً فيقولون لرَجَب: رَكَب، ولرجل: ركل" [ص٩١].

ب.أحكام المقدسي على لغات أقاليم العجم:

في كلام طويل أوردَ أحكاماً عديدة وملاحظات لغويّة على لغات بعض بلاد إقليم المشرق، وهو من أقاليم العجم، وهي أحكام كثيرة في نصّ يجمع بين الحكم على تلك اللغات وبيان نوع اللسان، قال فيه: "وألسنتهم مختلفة أما لسان **نيسابور** ففصيح مفهوم، غير أنهم يكسرون أوائل الكلم، ويزيدون الياء مثل بِيكو وبِيشَوْ، ويزيدون السين بلا فائدة مثل: بخردستي وبكفتستي وبخفتستي، وما يجري مجراها، وفيه رخاوة ولجاج، وأهل **طوس ونسا** أحسن لساناً، وفي كلام **سجستان** تحامل وخصومة، يخرجونه من صدورهم ويجهرون فيه، ولسان **بُسْت** أحسن...".[٢٩]

وعلّق يوهان فك على معرفة المقدسي غير العربية بقوله: "بيدَ أن عناية المقدسي اللغوية لم تقتصر على العربية، بل تمتدّ إلى جميع اللغات التي يجري الكلام بها في إيران لذلك العهد، وكلامه صريح في أنه كان يفهم الفارسية إلى حدّ كبير حتى إنه كان يستطيع أن يحكم على لهجاتها بحسب مكانتها من قانون لغة الكتابة".[٣٠]

وصف المقدسي اللغات بالتوحّش:

ممّا تميّز به أسلوب المقدسي دوران بعض الكلمات والعبارات في كلامه كثيراً، ومن ذلك استعماله صفة التوحّش في حديثه عن ألسنة بعض الأقاليم، وفيما يلي سردٌ بتلك المواضع ليظهر لنا تميّز أسلوبه بمثل هذا:

- قال في أحكامه عن بعض الألسنة: "ولا أحسن لساناً من أهل بغداد، ولا **أوحش** من لسان صيدا وهراة" [ص٤٢]
- وقال عن إقليم جزيرة العرب: "وجميع لغات العرب موجودة في بوادي هذه الجزيرة إلا أنّ أصحّ بها لغة هُذَيل، ثم النّجدين، ثم بقية الحجاز، إلا الأحقاف فإن لسانهم **وَحش**" [ص٩١]
- وقال عن إقليم المشرق – جانب خراسان -: "ولسان هَراة **وحش** تراهم يفقمون ويتكلّفون ويتحاملون ثم يخرجون الكلام آخر ذلك ملوّثاً بالكَوَه" [ص٢٦١]

- وقال عن قاين وهي في إقليم المشرق: "قاين: هي قصبة قوهستان لا طيّبة ولا سريّة بل صغيرة ضيقة ظمئة، لسان **وحش** وبلد قذر ومعاش قليل" [ص٢٥٠]

ويتضح مما سبق تنوّع المسائل في كتب الجغرافيين وهي مما يُعدّ في ميدان علم اللغة الجغرافي، وقد سبقها المسائل التي تدخل تحت هذا العلم مما ذكره اللغويّون.

ولعلّ فيما مضى من صفحات ما يكشف باختصار شديد عن المفاهيم المتعلقة بذلك العلم وتطبيقاته.

الخاتمة:

فيما مضى من صفحات البحث حاولت أمراً صعباً، هو إعطاء صورة متوازنة عن علمٍ حديثٍ له جذور قديمة لدى العرب، هو علم اللغة الجغرافي في عدد قليل من الصفحات، وجاءت الصعوبة من كونه علماً حديثاً يحمل مفاهيم تُطبّق على ميادين جديدة للبحث، مع دخول العديد من جهود علماء العرب تحت مظلّته، وهو ما يحتاج إلى موازنة بين الجديد فيه والقديم الذي ينضوي تحته.

حاولت في بحثي الجمع بين إعطاء صورة تقريبية للعلم في جانبه النظري، مع تقديم جوانب تطبيقية له، سواء في عالمنا المعاصر، أو في جهود العلماء السابقين.

لقد خرجت بنتائج إيجابيّة من عملي في هذا البحث، يمكن تقديم أهمّها:

- كثيرٌ من العلوم اللغوية التي تحمل اصطلاحات حديثة في تسميتها لها جذور راسخة في أعمال القدماء؛ ذلك أنّ جهود علماء العرب شملت كلّ جوانب اللغة، بل إنّهم سعوا إلى التجديد في دراساتهم على مدى التاريخ، بل إنّ إسهام غير اللغويّ في الحديث عن اللغة حينما تتصل بتخصّصه هو ممّا يغني الدراسات اللغويّة، وهو الذي حصل في دراسات هذا العلم (علم اللغة الجغرافي)؛ فقد كان لجهود الجغرافيّين أثر كبير في نضج هذه الدراسات، فقد اجتهدوا في الكشف عن امتدادات اللغة واتصالها بالجغرافيا.

- مناطق التماسّ بين العلوم من أغنى الميادين للدراسة، مع انصراف كثير من الباحثين عنها لغفلتهم عن الصلة بين العلوم وإيثارهم المسائل الخالصة في تخصصاتهم، كما أنّ البحث في هذه الميادين يحتاج إلى اجتهاد واطلاع وسعة أفق تجعله يخرج أحياناً من بعض ما اعتاد عليه في تخصّصه.
- حاجة التراث العربيّ إلى مزيد من العناية لاستخراج ما فيه من كنوز تسهم في تقريب العلوم الحديثة إلينا وتقبّلنا لها؛ فشعورنا بأنّ ما جدّ في ميادين العلم من استقلال بعض العلوم له أصول في التراث العربي سيجعل الباحث العربي أكثر تفاعلاً مع هذه العلوم؛ لأنّ أسلافه سبقوه في الخوض فيها.
- تأتي كتب الرحلات من أغنى المصادر في تصوير لغات الأقاليم والتغيرات اللغويّة التي تصيبها، وهي من أصدق المصادر في إعطاء الصورة الحقيقية عن الحالة اللغوية في البلدان التي تصفها.

هوامش البحث:

[١] المصري، عبد الفتاح، "التفكير اللساني في الحضارة العربيَّة"، **مجلة الموقف الأدبي**، مجلة أدبية شهرية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق، العدد (١٣٥) و(١٣٦)، تموز وآب ١٩٨٢م.

[٢] انظر عن مصطلحات هذا العلم: الخطيب، أحمد شفيق، **قراءات في علم اللغة**، (مصر: دار النشر للجامعات، ١٤٢٧هـ)، ص٤٢، ٥٣-٥٤، باب المصطلح LINGUISTICS وفروعه في أهم المعاجم العربية والإنجليزية المتخصصة في علم اللغة؛ وبريتون، رونالد ل، **علم اللغة الجغرافي: السنن اللغوية وعلم الجغرافيا العرقي اللغوي**، ترجمة: هارولد ف. شفمان إلى الإنجليزية، وترجمه إلى العربية: عواد بن أحمد الأحمدي، (نشر الجمعية الجغرافية السعودية ١٤٢١هـ)، ص٢٣.

[٣] انظر: ياغي، أحمد عبد الله عبد ربه، **الملاحظات اللغوية للجغرافيين العرب دراسة في ضوء علم اللغة**، رسالة دكتوراه، إشراف: حلمي خليل، (قسم اللغة العربية واللغات الشرقية بكلية الآداب بجامعة الإسكندرية ١٩٩١م)، ص٧.

[٤] انظر: ماريوباي، **أسس علم اللغة**، ترجمة: أحمد مختار عمر، ط٣، (القاهرة: عالم الكتب،١٩٨٧م)، ص٣٧.

[٥] انظر: عساكر، خليل محمود، "الأطلس اللغوي"، **مؤتمر الدورة الخامسة عشرة: الجلسة الحادية عشرة**، سنة ١٩٤٩م، ونشر البحث في **مجلة مجمع اللغة العربية**، الجزء (٧)، ص٣٧٩-٣٨٤.

[٦] انظر: عبد التواب، رمضان، "الجغرافيا اللغوية وأطلس برجستراشر"، **مجلة المجمع**، الجزء (٣٧)، ص١١٩- ١٢٤.

[٧] عساكر، "الأطلس اللغوي"، **مجلة المجمع**، ج (٧)، ص٣٧٩- ٣٨٤.

[٨] نشرته الجمعية الجغرافية السعودية ضمن سلسلة (دراسات جغرافيّة) وهي سلسلة محكمة غير دوريّة تصدرها الجمعية، ورقمه (١٣) ٢٠٠٦ م.

[٩] انظر عن طرق عمل الأطلس: عساكر، "الأطلس اللغوي"، **مجلة المجمع**، الجزء (٧)، ص٣٧٩-٣٨٤؛ وعبد التواب، "الجغرافيا اللغوية وأطلس برجشتراسر"، **مجلة المجمع**، الجزء (٣٧)، ص١١٩- ١٢٤.

[١٠] انظر: عساكر، "الأطلس اللغوي"، **مجلة المجمع**، الجزء (٧)، ص٣٧٩- ٣٨٤.

[١١] للاطلاع على جميع الخرائط وجميع أنواع التبادلات التي ذكرها بتفصيل انظر: ياغي، **الملاحظات اللغوية للجغرافيين العرب: دراسة في ضوء علم اللغة**، ص٤٧٤- ٤٩٠.

[١٢] انظر عن تفصيل الموضوع: الخطابي، إبراهيم محمد، "الأسس النظرية والمنهجية لأطلس لسان المجتمع العربي"، **مجلة اللسان العربي**، العدد (٤٤)، ديسمبر ١٩٩٧م، ص١١٩.

[١٣] سبق التعريف باختصار بكتاب رابين (اللهجات العربية الغربية القديمة) عند ذكر أبرز الدراسات حول علم اللغة الجغرافي.

[١٤] سيأتي جزء من نصّ كلام الهمداني عن أحكامه على لغات الجزيرة عند الحديث عن أحكام الجغرافيّين على لغات البلدان، وانظر: رابين، تشيم، **اللهجات العربية الغربية القديمة**، ترجمة: عبد الرحمن أيوب،(الكويت: طبعة جامعة الكويت، ١٩٨٦م)، ص ٩٣-٩٤، في مناقشته رأي الهمداني.

[15] انظر: السابق نفسه، ص١٢٥ وما بعدها.

[16] انظر السابق نفسه، ص١١٤ وما بعدها.

[17] انظر عن الأسر اللغوية المعاصرة: بريتون، **علم اللغة الجغرافي: السنن اللغوية وعلم الجغرافيا العرقي اللغوي**، ص١٩٦ وما بعدها.

[18] انظر: السابق نفسه، ص٣٤ وما بعدها.

[19] انظر: الودغيري، عبد العلي، "قضية الفصاحة في القاموس العربيّ التاريخي"، **مجلة المعجميّة**، السنة (٥-٦)، ص٢٢٠-٢٢٤.

[20] انظر: السيوطي، جلال الدين، **المزهر في علوم اللغة وأنواعها**، تحقيق: محمد أحمد جاد المولى، علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، (دار إحياء الكتب العربية، د.ت)، ج١، ص٢١١-٢١٢.

[21] ابن رشيق، القيرواني، **العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده**، ط٤، تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد، (بيروت: دار الجيل، ١٩٧٢م)، ج١، ص٨٨-٨٩.

[22] انظر: ياغي، **الملاحظات اللغوية للجغرافيين العرب دراسة في ضوء علم اللغة**، ص١٣١-١٣٢.

[23] انظر: السابق نفسه، ص١٢٢.

[24] اعتمدت على: المقدسي، أبو عبد الله، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، نشر: محمد مخزوم، (دار إحياء التراث العربي، ١٩٨٧م)، ولاختصار الحواشي فإني وضعت رقم الصفحة أمام كل فقرة.

[25] ابن بطوطة، **رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**، نشر: عبد الهادي التازي، (المغرب: مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، ١٩٩٧م)، ولاختصار الحواشي وضعت رقم الجزء والصفحة أمام كل فقرة. وقد ذكرت الكثير من تسميات الشعوب للأطعمة والأشربة وغيرها في كتابي: **ابن بطوطة وجهوده اللغويّة الجغرافية: ألفاظ الأطعمة والأشربة أنموذجاً**، ص٢٠.

[26] انظر للاطلاع على جميع الألفاظ التي ذكرها المقدسي، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، ص٣٩.

[27] الهمداني، لسان اليمن الحسن بن أحمد، **صفة جزيرة العرب**، ط٢، تحقيق: محمد بن علي الأكوع الحوالي، (صنعاء: مكتبة الإرشاد، ٢٠٠٨م)، ص٢٤٨-٢٤٩.

[28] للتوسع في الاطلاع على آراء رابين حول ما ذكره الهمداني انظر كتابه: **اللهجات العربية الغربية القديمة**، ص٩٠-٩١.

[29] انظر: المقدسي، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، ص٢٦١.

[30] فك، يوهان، **العربية: دراسات في اللغة واللهجات والأساليب**، ترجمة: عبد الحليم النجار، (القاهرة: الدار المصرية السعودية، د.ت)، ص٢١٠.